

الوافي في الوفيات

وصحبت قوماً لست من نظرائهم ... فكأنني في الطرس سطر ملحق .
قولا لمن حمل السلاح وخضره ... ومن قد ذايله أدق وأرشق .
لا توه جسمك بالسلاح وحمله ... إني عليك من الغلالة أشفق .
طبي من الأتراك فوق حدوده ... نار يحر لها الكليم ويصعق .
تلقاه وهو مزرد ومدرع ... وتراه وهو مقرط ومقرطق .
لم تترك الأتراك بعد جمالها ... حسناً لمخلوق سواها يخلق .
إن نزلوا كانوا أسود عريكة ... أو غوزلوا كانوا بدوراً تشرق .
قوم إذا ركبوا الجياد طننتهم ... أسداً بألحاط الجآذر ترمق .
قد خلقت بدم القلوب حدودهم ... ودروعهم بدم الكماء تخلق .
جذبوا القسي إلى قسي حواجب ... من تحتها نبل اللواحق ترشق .
نشروا الشعور فكل قد منهم ... لدن عليه من الذؤابة منحق .
لي منهم رشاً إذا قابلته ... كاد لواخطه بسحر تنطق .
إن شاء يلقاني بخلق واسع ... عند السلام نهاه طرق ضيق .
لم أنس ليلة زارني ورقيبه ... يبدي الرضى وهو المغيظ المحنق .
حتى إذا عبث الكرى بجفونه ... كان الوسادة ساعدي والمرفق .
عانقته وضممته فكأنه ... من ساعدي ممنطق ومطوق .
حتى بدا قلق الصباح فراغه ... إن الصباح هو العدو الأزرق .
وأنشدني له إجازة يمدح السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون : الكامل .
أسبلن من فوق النحور ذوائباً ... فتركن حبات القلوب ذوائباً .
وجلون من صبح الوجوه أشعة ... غادرن فود الليل منها شائباً .
بي دعاهن الغبي كواعبا ... ولو استبان الرشيد قال كواكبا .
وربائب فإذا رأيت نفارها ... من بسط أنسك خلتهن رباربا .
سفهن رأي الما نوية عندما ... أسبلن من ظلم الشعور غياها .
وسفرن لي فرأين شخصا حاضراً ... شدهت بصيرته وقلباً غائباً .
أشرقن في حلق كأن أديمها ... شفق تدرعه الشמוש جلائبا .
وغربن في كلال فقلت لصاحبي ... بأبي الشמוש الجانحات غواربا .
ومعربد اللحظات يثني عطفه ... فيخال من مرح الشبيبة شاربا .

حلو التعتب والدلال يروعه عتبي ولست أراه إلا عاتبا .
عاتبته فتضرجت وجناته ... وازور ألحاظاً وقطب حاجبا .
فأراني الخد الكليم وطرفه ... ذو النون إذ ذهب الغداة مغاضبا .
ذو منظر تغدو القلوب بحسنها ... نهباً وإن منح العيون مواهبا .
لا غرو أن وهب اللواحق خطوة ... من نوره ودعاه قلبي ناهبا .
فمواهب السلطان كست الورى ... نعماً وتدعوه القساور سالباً .
الناصر الملك الذي خضعت له ... صيد الملوك مشارقاً ومغارباً .
ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات الفراغ متاعباً .
لم تخل أرض من ثناه وإن خلت ... من ذكره ملئت قناً وقواضياً .
بمكارم تذر السباسب أبحراً ... وعزائم تذر البحار سباسباً .
ترجى مواهب ويرهب بطشه ... مثل الزمان مسالماً ومحارباً .
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ العيون مواهبا .
كالغيث يبعث من عطاه نائلاً ... سبطاً ويرسل من سطاها حاصباً .
كالليث يحمي غابه بزئيره ... طوراً وينشب في القنيم مخالباً .
كالسيف يبدي للنواظر منظراً ... طلقاً ويمضي في الهياج مضارباً .
كالسيل يحمده منه عذاباً واصلاً ... ويعده قوم عذاباً واصباً .
كالبحر يهدي للنفوس نفائساً ... منه ويبدي للعيون عجائباً .
فإذا نظرت ندا يديه ورأيه ... لم تلف إلا صيباً أو صائباً .